المارقين من نظامها، العابثين بأقداسها. فحرصها على سلامة فلسها من التزييف أشدّ بكثير من حرصها على سلامة ذوقها من العفن، وقلبها من الغِشّ، وفكرها من الضلال. فهي قاسية إلى أقصى حدّ على الذين يزيّنون لها الرصاص فضّة، والنحاس ذهباً، والزجاج ألماساً؛ ورفيقةٌ كلّ الرفق بالذين يزيّنون لها الرياء إخلاصاً، والمذلّة كرامة، والعبودية حرية، والاستغلال استقلالاً، والديجور نوراً. بل هي تطيع هؤلاء طاعة تكاد تكون عمياء، وتنقاد لهم انقياد البعير لحاديه، والحَمَل لراعيه. وفي ذلك من العجب ما فيه.

من قديم قال المثل: «مَن مدحك بما ليس فيك فقد ذمّك». ولعلّ أكبر مذمّة نوجّهها إلى عصر نحن فيه هي نعتنا إيّاه بـ«عصر النور». فما أكثر الألسنة والأقلام التي تنزلق عنها كلمة «النور» بسهولة متناهية كلّما حدّثت عن هذا العصر. حتى كأن النور نَقد متداول في أسواق الناس، أو وسام يسكّه من يشاء ساعة يشاء ويعلّقه حيث شاء. وعندي أنّ مَن استخفّ بالنور إلى حدّ أن يجعله صِفةً لعصر كهذا العصر إنّما يستخفّ بالناس وينقدهم نقداً زائفاً. فهو عدوّ نفسه، وعدوّ الناس، وعدوّ النور.

وما هو النور الذي نعنيه عندما نقول إنّنا اليوم في النور وأمس كنّا في الظلام؟